عزة الإسلام بيد علمائه وشبابه
فهل يفعلون ؟ [1]

« أثناء زيارته الأخيرة لدولة الإمارات ، مدعواً لإلقاء عدد من المحاضرات العامة والتخصصية ، كان لقاء « الإصلاح » مع الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى ... عميد كلية الشريعة بقطر .

وحينما يجتمع فهم الفقيه وبيان الأديب وحرارة الداعية فى شخص مثل الدكتور القرضاوى ... فذلك يعنى أن اللقاء معه كملاقاة البحر الزاخر بالدرر ... إذا حدّدت زمناً لجنى لآلئه ، ضاع منك الزمن ، وفاتك من اللآلئ الكثير ...

فإن للزمن عند الدكتور القرضاوى حساباً آخر ، فخلال الثمانى والأربعين ساعة التى خصصها لزيارة الإمارت ، كانت عقارب الساعة عدوَه الأوحد فى تحركاته ولقاءاته وأحاديثه ... فدقة الفقيه علّمته أن الوقت ثمين جداً ... لكن حرارة الداعية أقنعته أن الدعوة بكلمة طيبة يهون أمامها كل ثمين .

لذلك وافق الدكتور يوسف القرضاوى على اقتطاع جزء من وقته المتسارع ليخص « الإصلاح » بهذا الحديث القيم » .

* * *

● الملاحَظ أن الحديث عن الصحوة الإسلامية بات يتصدر الكثير من الكتب والدراسات والمقالات التى يطرحها الكُتّاب والمفكرون الإسلاميون اليوم ... فما هى حدود هذه الصحوة ، وما هى الإيجابيات والسلبيات التى تميزها ؟ .

● ● يراد بالصحوة الإسلامية حركة البعث الإسلامى الممتد فى آفاق عالَمنا الإسلامى ، شرقه وغربه ، عربه وعجمه ، بل الممتد خارج هذه الحدود ، إلى أمريكا وأوروبا والشرق الأقصى ، حيث نجد آثار هذه الصحوة فى الجمعيات

---

(١) نشر فى مجلة « الإصلاح » فى دبى (شوال سنة ١٤٠٤ هـ - يوليو سنة ١٩٨٤ م) .

obeikandl.com

الطلابية والتجمعات الشبابية الإسلامية التى أثرت فى كثير من شبابنا المهاجر للدراسة أو للعمل ... فهى موجودة فى كل مكان ، ولعل هذا ما حفز القوى المعادية للإسلام وأجهزتها الراصدة أن تخطط لضرب هذه الصحوة ، وتؤلّب القوى الخائفة والحاقدة داخل العالَم الإسلامى للوقوف فى وجهها ...

ولهذه الصحوة مظاهر عديدة ، تتجلى فى الحركة الإسلامية الطلاّبية وفى الحركة الفكرية والثقافية ... وعلى الصعيد العملى نجد صحوة إسلامية أيضاً ... فى حركة البنوك الإسلامية .. فى المدارس الإسلامية ، فى الحركات والجماعات الإسلامية المختلفة .. الجمعيات الإسلامية ... المجلات والصحافة الإسلامية ... هذه كلها تعتبر مظاهر إيجابية لهذه الصحوة ، ولكن هناك بعض السلبيات ، مثل المبالغة فى بعض الفروع التى ليست من أصول الإسلام ولا من صلبه ولا من فرائضه ، وإقامة معارك جدلية من أجلها ، ومقاتلة الآخرين عليها ، والانشغال بالجزئيات عن الكليات ، وبالقضايا الجانبية عن المعارك المصيرية والكبرى ، وسوء الظن بالآخرين سوءاً يؤدى فى بعض الأحيان إلى تفسيقهم أو تبديعهم أو تكفيرهم ، مع عدم رعاية الوجه الأخر من الفكر والرأى ... كل هذا يسبِّب بعض السلبيات التى نراها فى الصحوة الإسلامية ، وهذه قد يغذيها بعض المعادين للإسلام لتظل الحركة الإسلامية مشغولة بهذه الفروع الجانبية عن القضايا الكبيرة ، ولتظل الجماعات العاملة مشغولة بعضها ببعض فتتآكل من الداخل فضلاً عن ضربها من الخارج .

* *

إستقامة الطريقة ومعرفة الزمان

● إذن ، هل تعتقد أن هذه الصحوة بهذه السلبيات والإيجابيات تواكب فى مسيرتها الزمن مقابل مسيرة الجاهلية وقُوَى الشر والكفر الأخرى ؟

● ● لا شك أن قُوَى الشرّ والكفر الأخرى تملك من القدرات والإمكانيات ما لا تملكه الصحوة الإسلامية ، وعند هذه القُوَى من الطاقات المادية ما يفوق

إمكانياتنا ، لقد أصبحوا يستخدمون العلم فى كل شئ ، ودخل الكمبيوتر إلى صفهم فى الصراع ، بينما نحن مع الأسف لا نملك للآن مركز معلومات « أرشيف » كاملاً للعاملين للإسلام ولا المعادين له ، وهذا يدل على مدى عجز العاملين للإسلام إلى الآن ، إنهم يحتاجون إلى تخطيط وتنظيم على مستوى العصر ، نعم .. نحن نملك مقابل هذه طاقات أخرى معنوية ، لأننا أصحاب العقيدة الصحيحة والرسالة الخاتمة ، ونملك أعظم رسالة فى الوجود ، وعندنا تراث عظيم لا تملكه أمة من الأمم ، وعندنا رصيد الفطرة فى قلوب المؤمنين ، وعندنا وعد الله تعالى بالنصر لمن آمن به وعمل لدينه ، عندنا هذا كله ، ولكن ينبغى أن يكون عندنا أيضاً التخطيط والتنظيم على مستوى عصرنا ، ورحم الله امرءاً عرف زمانه واستقامت طريقته ، لا بد من الأمرين : استقامة الطريقة ومعرفة الزمان والعصر ومتطلباته ، وأعتقد أن الوعى بهذا أصبح قائماً ، والشعور بالنقص هو بداية طريق الكمال كما يقولون ...

* *

يجب أن نتحمل المسؤولية

● هل تعتقد أن هذا النقص والتخلف المادى يعود سببه إلينا نحن أم إلى القُوَى الخارجية ؟

● ● نحن نعتقد أن للقُوَى الخارجية دوراً ، ولكنى لا أقرّ نوع التفكير الذى يريد أن يُرجع كل شئ إلى القُوَى الخارجية المعادية للإسلام . وإذا كانت هناك قُوَى أخرى تخطط لنا فلماذا نظل كذلك ولا نخطط لأنفسنا ؟ ... نحن أيضاً مسؤولون .

* *

نتعاون فيما اتفقنا عليه

● عند الحديث عن الصحوة الإسلامية تبرز بشكل لافت للنظر قضية تعدد الجماعات الإسلامية العاملة فى ساحة الدعوة ، دون أن يختفى الاختلاف وربما التنافر الذى يفصل بعضها عن بعض فى أحيان كثيرة ... هل تعتقد أن ظاهرة

التعددية ظاهرة صحية ، وما هو المفهوم الصحيح الذى يجب أن يسود بين هذه الجماعات لتوظيف طاقاتها مجتمعة فى خدمة مصلحة المسلمين كافة ؟

● ● التعددية ظاهرة مفروضة فرضها غياب فريضة كبرى من فرائض الإسلام ، فإذا عدنا إلى الصدر الأول - عهد النبوَّة المطهَّرة وعهد الخلافة الراشدة التى أجمع عليها المسلمون - فلا نجد إلا جماعة واحدة تحت قيادة واحدة هى جماعة المسلمين تحت إمامة واحدة لرسول اللّه ﷺ ثم تحت إمامة الخليفة الراشد من بعده ، وظل العمل للإسلام على هَدْى جماعة واحدة تحت إمامة راشدة واحدة حتى اختفت الخلافة الراشدة المبايَعة ببيعة شرعية من مسلمى الأرض ، فقام أعلام الدعاة المصلحون المخلصون بالدعوة إلى العمل من أجل الإسلام ومن ثَمَّ نشأت الجماعات وتعددت ... أى أنه لا تعدد فى الجماعات الإسلامية إذا كان المسلمون يعيشون تحت سلطان خلافة راشدة انعقدت ببيعة شرعية ، أما اليوم وقد غابت الخلافة عن حياة المسلمين فعلى الجماعات الإسلامية أن ينسق بعضها مع بعض . وأن يكون هناك قدر من التفاهم والتعاون بينها ، وأن يعى الجميع خطورة الموقف الذى نحن فيه ، وخطورة القوى التى تعادى الإسلام وتعمل على تدمير المسلمين ، يجب أن نتفق عليها ، ونحن نعرف القاعدة المشهورة - قاعدة المنار الذهبية التى وضعها السيد رشيد رضا رحمه اللّه ، وتبناها الإمام الشهيد حسن البنا - وهى قاعدة : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » ، وإذا كان المرء مجتهداً فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر ، وينبغى أن يكون شعارنا : « إن رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب » ، والصواب والخطأ كلاهما يؤجر الإنسان فيه ، فالمخطئ معذور بل مأجور أجراً واحداً ... هذه هى العلاقة التى ينبغى أن تكون بين العاملين فى الجماعات الإسلامية المختلفة إذا صحَّت النيَّات ، إنما إذا وُجِدَ الهوى ، ووجدت أحقاد شخصية ، فهذا هو الخطر ، وهذه

هى الثغرة التى يدخل منها خصوم الإسلام ، ومع الأسف يمكن أن تُستَغل جماعة من بعض القُوَى لضرب جماعة أخرى ثم يُضرب الجميع فى النهاية .

* *

بين الشباب والعلماء

● فى كتابك الأخير « الصحوة الإسلامية .. » تحدثتَ عن ظاهرة إعراض الشباب عن العلماء ، وذكرتَ بالتفصيل أسباب ذلك ، ونودُّ أن تحدثنا عن علاج هذه المعضلة ، والدور الموكول إلى العلماء فى تذويب هذا الحاجز بينهم وبين الشباب أولاً ، ومن ثَمَّ النهوض بهم إلى المستويين العلمى والنفسى المطلوبين .

● ● علاج ذلك ذو شقين ، شق يتصل بالعلماء ، وشق يتصل بالشباب ، فالعلماء عليهم أن يصححوا موقفهم أيضاً ، فلقد أعرض الشباب عن كثير منهم لما رأى فيهم عدم الاهتمام بالإسلام ، ورأى فيهم التقرب من سلاطين الجور ، والوقوف مع السُلطة فى الحق والباطل ، ورآهم سراعاً إلى موائد الظلمة ، رآهم يُعرضون عن الشباب ولا يقولون كلمة حق ، رأى هؤلاء انشغلوا عن الدين بالدنيا ، بل عن العلم نفسه ، حتى إن كثيراً منهم لم يكوِّن نفسه التكوين العلمى الصحيح بحيث يستطيع أن يفهم الدين والحياة ، ويعرف قضايا العصر وما تستحقه ، فعلى هؤلاء أن يصححوا موقفهم ، وعلى العلماء الذين رزقهم اللّه الفقه والإخلاص أن يقتربوا من الشباب وألا يبتعدوا بأنفسهم ، فهناك الكثير من العلماء الطيبين ، ولكنهم يؤثرون الهرب من المجتمع وما فيه ، ويرون العزلة أسلم طريق ... فى البُعد عن الحكّام والبُعد عن الشعب نفسه ، لكن الحل ليس فى الفرار ، وإنما أن يبحث أولئك عن الشباب للأخذ بيده وتسديد طريقه .

وعلى الشباب واجب آخر ، عليهم أن يتواضعوا ويحترموا الاختصاص ، ويعلموا أنه سُنَّة اللّه فى الكون إذ جعل لكل علم أهله كما قال سبحانه :

﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [1] ، فلا بد أن يرجع الشباب إلى أهل الاختصاص ، ومع الأسف - ونحن فى عصر التخصص - نعترف بالتخصص فى كل ناحية إلا فى الناحية الشرعية والإسلامية ، والدين وحده هو الذى أصبح كلأً مباحاً يفتى فيه مَنْ شاء !! .. وبعض الشباب يأخذهم الغرور ، فمجرد أن قرأ بعض الكتب الدينية يظن أنه قد أصبح مفتياً وقادراً على أن يُخطِّئ كبار الأئمة وكبار الصحابة أنفسهم ، ويقول : نحن رجال وهم رجال !! وهذه مشكلة السطحية ، فنصف العلم يُفسد أكثر من الجهل ، وكما قالوا : فإن أخطر الناس على الحياة نصف متفقه ونصف متطبب ونصف نحوى ونصف متكلم ، فنصف المتفقه يفسد البلدان ، ونصف المتطبب يفسد الأبدان ، ونصف النحوى يفسد اللسان ، ونصف المتكلم يفسد الأديان ..

● ألا ترى - أستاذنا الفاضل - أن الإعراض يكون فى كثير من الأحيان إعراضاً من الشباب عن سلوك العالِم وليس عن علمه ؟

● ● هناك بعض الشباب يغالون فى هذه الناحية ، فقد يكونون محقين بالنسبة لسلوك بعض الذين يبيعون دينهم بدنياهم أو بدنيا غيرهم ، لكن هناك بعض العلماء الذين يكون لهم ترخصات فى بعض الأحيان بناءً على فقه عندهم ، ويجب معرفة هذا أيضاً ، والمسائل الخلافية لا ينبغى أن تكون موضع إنكار ، وعلماؤنا قالوا : لا إنكار فى المسائل الاجتهادية ، إنما العالِم الذى يرتكب محرّماً صراحة أو يترك واجباً لا شك فيه ، فهذا يُرفض تماماً ، ومع هذا قد يُستفاد منه وكما قيل :

فخـــذ بعلمـى ولا تركن إلى عملى ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى

* *

---

(١) الفرقان : ٥٩

بين العلمانية والعقلانية

● تُثار فى هذه الفترة قضية العلمانية فى مقابل الإسلام ، ويحاول البعض الإيحاء بأن العلمانية هى العقلانية . هل من صحة لهذا الربط ، ومن ثمّ هل من حدود بين الفكر العقلانى والفكر الدينى فى الإسلام ؟

● ● من المهم فى مثل هذه الأمور تحديد المفاهيم ، وتبيان ما هى العلمانية فعلاً ، فالحكم على الشئ فرع عن تصوره . هناك بعض الناس يخلطون عن سوء فهم أو سوء قصد بين العلمانية والعلمية ، لكن المعروف أن العلمانية أصبحت مصطلحاً معيّناً ومحدداً ، يعنى فصل الدين عن الدولة ، وعزل الدين عن الحياة ، والقرآن عن السلطان . وهذا أمر مرفوض لأن الدولة التى لا إسلام لها لا يقبلها المسلم ، والدين الذى لا دولة له لا يعرفه الإسلام ، فهو يحتاج إلى حكم يطبق تعاليمه ويقيم حدوده ، وإذا جاز الفصل بينهما فى النصرانية لم يجز أبداً فى الإسلام ، فعندهم : دَعْ ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه ، أما نحن فلا نقبل هذه القسمة ، ليس الإنسان عندنا مشطور شطرين ، شطر لقيصر وشطر للّه ، وليست الحياة عندنا مقسومة قسمين ، قسم للدين وقسم للدولة ، والقسمان بل الحياة كلها والإنسان كله للّه ، وقيصر وما لقيصر للّه الواحد الأحد .. أما العلمية والعقلانية فأمر يرحب به الإسلام ويقوم عليه ، وعلى هذا قامت الحضارة الإسلامية التى جمعت بين العلم والإيمان ، دون أن تعرف صراعاً بينهما كما عرفته المجتمعات الأخرى ، حتى قال علماؤنا : إن العقل أساس فى معرفة النقل . فالوحى يُعرف بالعقل ، والمعجزات والآيات المثبتة للنبوّة والتى تدل على أن هذا رسول اللّه حقاً تُعرف بالعقل . فأعظم قضيتين فى الوجود يُعرفان عن طريق العقل : الألوهية والنبوّة [1] .

* *

(١) راجع الحوار حول (الإسلام والعقلانية) ص ١١٩ وما بعدها .

فى السياسة الشرعية

● يساهم الإسلاميون بين حين وآخر ، وفى بعض البلدان ، فى العمل السياسى العام ضمن مواصفات وشروط الأوضاع الراهنة التى لا تدين بالولاء التام للإسلام ... هل ترى فى مثل هذه المساهمة إيجابية ومكسباً للحركة الإسلامية ، أم أن لك رأياً آخر ؟ .

● ● هذه الأمور تدخل فى باب ما يسمى السياسة الشرعية ، وهى باب واسع يشمل كل ما فيه مصلحة للأمة الإسلامية وللجماعة الإسلامية والحركة الإسلامية ... وهى تقوم على أساس الموازنة بين المنافع والمضارّ ، والمكاسب والخسائر ، فلا ينبغى أن نقف من هذه الأمور موقف المتشنج الذى يرفض كل شئ ، ولا موقف مَنْ يقبل أى شئ أيضاً ، فإذا كان فى قبول بعض هذه الأوضاع مصلحة للحركة الإسلامية والعمل الإسلامى جاز ذلك ، والإسلام واسع الأُفق فى هذه الناحية ، وقد رأينا النبى عليه الصلاة والسلام يحالف خزاعة فى صلح الحديبية ، واستعان عليه الصلاة والسلام بالمشركين فى بعض الأحيان كما فى غزوة حنين .. فهناك إذن مَنْ يقفون معك وقد يكون منطلقهم ليس منطلقك ، وهدفهم غير هدفك ، لكنهم يتفقون معك فى هدف مرحلى ، وأنت تتفق معهم فى حدود هذا الهدف ، والإنسان الناضج هو الذى يستغل التناقضات بين أعدائه ، ويستطيع أن يأخذ أقرب المخالفين إليه ، ولهذا يجب على المسلم أن يصنف خصومه ومخالفيه ، وأن يستفيد من هذا لمصلحة العمل الإسلامى ، على أن لا نذوب فى أحد ولا نميع فيه ، ولا نفرّط فى عقائدنا وأصولنا ، فكما أنه لا ينبغى أن نقف متحجرين أمام ما وسّع الله ، لا يصح أن نفتح الأبواب على مصاريعها لنفقد شخصيتنا ونلغى وجودنا ونصبح أذناباً لغيرنا ..

* *

شغلنا العلم عن الشعر !

● الكثير من قرّاء الأستاذ يوسف القرضاوى لا يعرفون عنه مساهمته الثرّة والمضيئة فى حقل الأدب الإسلامى والشعر بالتحديد ، ولقد تغنّى الشباب المسلم وردّدوا كثيراً النونية الشهيرة التى نظمت فى الخمسينيات دون أن يعلموا جميعاً مَنْ قائل هذه الملحمة البديعة .

أين الأستاذ يوسف الآن من الشعر والأدب ؟ وهل استمر العطاء فى هذا الاتجاه ضمن مسيرة الحياة العلمية ومسؤولياتها الجسيمة ؟

● ● أما الأدب فلا أعتقد أنى انفصلت عنه ، ولكن الأدب أدبان : هناك الأدب المتخصص كالمقالات الأدبية ، والنقد الأدبى .. وهناك الأدب الذى يدخل فى ميدان العلم فيُصاغ العلم به ، وهذا ما يسمونه بالأسلوب العلمى المتأدب ؛ أنا أعتقد أنى أستخدم الأدب فى كتاباتى ودراساتى ومؤلفاتى ، وأحاول أن أكتب العلم بلغة أدبية ، سهلة بيِّنة مقروءة ، وبدون تكلف ، فأحاول أن أجمع بين دقة الفقيه ووضوح الأديب وحرارة الداعية قدر ما أستطيع ، أما الشعر فيبدو أننا تركناه من مدة ، كانت المحن عادة مثيرات للشعر ، كلما هجرناه تأتى محنة فيهيئ الله فراغ الوقت والذهن لعمل بعضه ، كالملحمة النونية التى ذكرتها ، وقد أنشئت فى السجن الحربى سنة ١٩٥٥ ، لم يكن معنا وقتها ورق ولا قلم ، فكنت أروى أبياتها للإخوان وأنشدها لهم ، فيتناقلونها بالرواية الشفهية على طريقة الأقدمين ويحفظونها ، وظلت هكذا حتى إنى لما أردت أن أنشرها بعد ذلك حاولت أن أجمعها من صدور الرواة .. هنا وهناك وقد تفرّقوا .. ولذلك ضاعت منها أبيات ووجدت روايات مختلفة أحياناً باختلاف الرواة .. وهكذا .. والكثير من الشعر الذى أنشدته ضاع فى أتون المحن .. وأنا منذ مدة لم أنشد شعراً ، والآن لم يعد هناك فراغ لهذا ، فقد شغلنا العلم عن الشعر ، وصعب على الإنسان أن يشتغل بالعلم ويفرغ فيه جهده ثم يجد وقتاً للشعر ، فهو يحتاج إلى صفاء معيّن وفراغ [١] ..

*

(١) جدّت ظروف بعد ذلك أثارت شاعرية الشاعر ، وهى ابتلاؤه بالانزلاق الغضروفى =

● ماذا تذكر الآن من القصائد التى نظمتها وما زلتَ تتأثر بها ؟

● ● هناك مما أذكره نونية من النونيات ، وكثير من شِعرى الباقى نونى .. أُلقيت سنة ١٩٤٩ بمناسبة ليلة القَدْر كان مطلعها :

عشقتها فاسترقت قلبى العانى ... فقمتُ أعزف فيها عذب ألحانى
سمَّوه شِعراً ، وإنى لا أراه سوى ... آهات قلبى وإحساسات وجدانى

ومنها :

يا ليلة زانها ربى وشرَّفها ... تنزيله فى دجاها نور قرآن
دستور حق وتشريع وتربية ... يبقى وإن زال هذا العالَم الفانى
ربَّى رجالاً مغاوير اهتدوا وغزَوا ... إن الرجولة من نور ونيران
أمسى بلال به من ذلةٍ ملكاً ... وصار سلمان شيئاً غير سلمان
للّه فتيان حق لو رأيت فتى ... منهم ترى مَلَكاً فى زى إنسان
فمن يدانى أبا بكر وصاحبه ... ومَنْ يجارى عليًّا وابن عفان
هذا الكتاب غدا فى الشرق -واأسفاه- ... شمساً تضئ ولكن بين عميان
يحاط بالطفل حرزاً من أذى وردى ... وفيها حرز الورى من كل خسران
يُتلى على ميت فى جوف مقبرة ... وليس بحكم فى حىّ بديوان
فكيف نرقى ومعراج الرقىّ لنا ... أمسى يُجَرّ عليه ذيل نسيان ؟

● نشكر لفضيلتكم هذا الحديث الممتع ، ونفعكم اللّه بالإسلام .. ونفع الإسلام والمسلمين بكم .

* * *

= سنة ١٩٨٥ م وقعوده فى البيت عدة أشهر ، وسفره إلى ألمانيا للعلاج ، وقد أثمرت هذه الفترة مجموعة من القصائد نشر بعضها فى ديوانه « نفحات ولفحات » وبقيت قصائد أخرى قديمة وجديدة لم تنشر، يرجى أن تضمها مجموعة أخرى تحت عنوان « المسلمون قادمون ! » .. إن شاء اللّه .